جوائز الشعراء والادباء عند العرب

بقلم روكس بن زائد العزيزي

نطلع في كتب الادب ، وفي كتب التاريخ ، على أخبار الجوائز التي كان الخلفاء والامراء يغدقونها على الشعراء وعلى الادباء ، فنقف حائرين في أمر هذه الجوائز وفي حقيقة إنفاقها من خزانة الدولة . ونجد أحياناً ان بعض الخلفاء أمر ان يملأ فم الشاعر المجيد جوهراً كما صنع الوليد بن يزيد الاموي ، وكما صنعت زبيدة زوج هارون الرشيد يوم أجازت سلماً الخاسر بملء فمه درّاً ، باعه بعشرين الف دينار ، إذ مدح ابنها الامين يوم بايعه ابوه الرشيد بولاية العهد . وكما فعل المعتصم بالله العباسي في بعض هباته . نقرأ ذلك فنكبر الواهب ونغبط الموهوب له ونتمنى لو كنا في زمانه ، او لو كان زماننا مثل زمانه !

نحن لا نستبعد ان يحدث مثل هذا العطاء في عصر من العصور مرة او عدة مرات في اثناء خلافة احد الخلفاء . فقد حدث في عصرنا ان أجيز شاعر بثلاثة آلاف دينار من أجل قصيدة ، لكن الذي لا يمكن الاطمئنان اليه هو ان يستمر الخليفة على مثل هذا العطاء المغرق في الاسراف والتبذير ، فنحن لو صدقنا ذلك لاضطررنا الى الاعتقاد ان الخزانة المالية لابد لها ان تمنى بالافلاس وشيكا .

والذي نعتقده ان هذه الجوائز كانت جوائز اسمية من اجل المبالغة بعظمة الشاعر ، وعظمة الخليفة الذي أمر له بالجائزة . وبعد ان يُذاع في الناس أمر هذه الجائزة يراضى الشاعر بالنزر اليسير من تلك الجائزة الضخمة في اسمها ، كما حصل مع الشاب الذي ساير المنصور في المدينة ، فأنه وعد في اليوم الاول بألفين وفي اليوم الثاني بألف ، فلما عاتب ولام قيل له : « ألف تحصل خير من ألفين لا سبيل الى الحصول عليها . »

وكما حصل مع أبي محمد اليمني يوم مدح محمداً الامين بقصيدة أطربته ، فأمر الامين الفضل بن الربيع ان يوقر زورقه مالاً .

قال له الفضل : « انت مجنون ؟ من أين لنا مال يملأ زورقك ؟. » ثم صالحه على مائة درهم . وهذه المصالحة التي يذكرها الاصفهاني في الجزء الثاني عشر من أغانيه في الصفحة الثانية عشرة بعد المائة من طبعة بولاق ، ويؤمن بها العلامة الصامت جرجي زيدان في تمدنه ، لا نستطيع نحن ان نطمئن اليها ، وإلا ظهر عندنا أنه أعطاه الف درهم وهو مبلغ يعادل ثمانية وأربعين ديناراً من نقدنا اليوم ، وهذا شيء معقول بالنسبة الى قوة المال الشرائية في ذلك الزمن ، لان هذا المبلغ وإن ظهر لنا تافهاً اليوم ، وانه لا يصلح ان يكون جائزة ملك ؛ كان ذا قيمة في ذلك العصر ، لان التاريخ يخبرنا ان الجمل كان يباع في زمن المنصور بدرهم ، كما بيعت ثماني النعاج في زمن المنصور بدرهم .

وفوق ذلك فقد كانت الضرائب نفسها قليلة لا تسمح بالتبسط في النفقة الى الحد الذي يذكرونه ، فلقد كانت ضرائب الديار الاردنية — وكانت تعرف بجند الاردن — في الدور العباسي على ما يخبرنا ابن خلدون في مقدمته سبعة وتسعين ألف دينار ، وكانت ضرائب جند فلسطين ثلاثمئة ألف دينار ، وعشرة آلاف دينار نقداً ما عدا الزيت !

فاذا صدقنا رواية ابن خلدون هذه — ولا شك عندنا في انها صادقة — لانها مبنية على أرقام مثبتة ، أقول إذا صدقنا روايته هذه استحال علينا ان نصدق ان معاوية بن أبي سفيان بذل لعبدالله بن جعفر مائة ألف درهم على شرط ان يسمي الغلام الذي رزقه عبدالله — معاوية . فرضي عبدالله بن جعفر بذلك لكنه وهب المال كله للذي بشره بالغلام . إننا نقبل هذه الرواية بمنتهى الحذر والريبة . كما نقابل بالحذر الشديد ما يروى من أن المنصور الخليفة العباسي الثاني المشهور بالتوفير الى حد البخل ، ان جوائزه بلغت عشرة ملايين من الدراهم ، مع ان كل ما وفر في مدة خلافته — وهي بضع وعشرون سنة — بلغ واحداً وثمانين مليون درهم ، فليس من المعقول أن يهب هذا الخليفة مثل هذه الملايين وهو الذي كان إذا أراد مكافأة شاعر جمع مكافأته من بني العباس بالدرهم . وكان شديد التدقيق في الناحية المالية حتى عرف بالدوانيقي ، أي الذي يحاسب على الدانق وهو جزء من أربعة وعشرين جزءاً من الدرهم ، والدرهم نحو ثمانية وأربعين فلساً من نقد الديار الاردنية الحاضر .

جاء في المستطرف في كل فن مستظرف للابشيهي ان الرشيد فرق في يوم واحد مليوناً وثلثمئة وخمسين ألف دينار، وأنه طرب فنثر على الناس ستة ملايين درهم، وان الهادي أعطى عبدالملك بن مالك صاحب شرطة أبيه مالاً أرسل به اليه على أربعمئة بغل موقرة. إن هذه الاقوال تجعلنا نشك في صدق ما يقول الادباء والمؤرخون على جوائز الادباء والشعراء ومقاديرها. والذي نعتقده ان المسألة كانت مجرد إذاعة لمحامد الواهب وتعظيم لمنزلة الموهوب له. بدليل ما تقدم بيانه من مصالحة الشاب الذي ساير المنصور، ومصالحة التيمي، وبدليل قول أبي بكر الخوارزمي:

ما لي رأيت بني العباس قد فتحوا ... من الكنى ومن الالقاب أبوابا؟
ولقبوا رجلاً لو عاش أولهم ... ما كان يرضى به للحشر بوابا
قلّ الدراهم في كفي خليفتنا ... هذا فأنفق في الاقوام ألقابا

أما الذي يخبرنا به الادباء والمؤرخون عن جود البرامكة فلا نجده دون ما يذكر عن كرم الخلفاء ومقدار جوائزهم مبالغة. فمن قولهم ان خالد بن برمك وهب لبشار بن برد عن كل بيت الف درهم لأنه مدحه بقوله:

حذا خالد في فعله حذو برمك ... فمجد له مستطرف واصيل
وكان ذوو الحاجات يدعون قبله ... بلفظ الى الاعدام فيه دليل
يسمون بالسُّؤال في كل موطنٍ ... وان كان فيهم نابه وجليل
فسمّاهم الزوّار سترا عليهمُ ... فآثاره في المهتدين سدول

ومع شكنا في اقوال المؤرخين والادباء نميل نوعاً من الميل الى تصديق ما يقال من ان بني العباس أجازوا مروان بن ابي حفصة عن كل بيت الف درهم، نميل الى تصديق ذلك بعض الميل لان بني العباس اتخذوا ذلك الرجل بوقاً لهم وآلة لتدمير شيعة علي ابن ابي طالب فكان بمنزلة الجريدة الحزبية التي يمدها الحزب بالمال لنشر آرائه ومبادئه.

أما ان توزع الجوائز والهبات، وهذه الملايين التي لا تعدّ ولا تحصى على نكرات بشرية بلا غاية، فهذا ما نشك فيه أعظم الشك. لا نقول هذا انكاراً منا للكرم العربي، والسخاء الشرقي لكنا نقوله انصافاً للعقل، وانصافاً لكرامة التاريخ.

نقول هذا وإن كنا نعرف من باعَ أضراسه الذهبية لكي يكرم ضيوفه، وان كان قد ذكر لنا الثقات ان رجلاً ذبح كل ما يملك من الغنم ليكرم ابن شعلان فينال حسن الذكر وطيب الأحدوثة[1]. لكن إذا فعل ذلك أفراد يطلبون السمعة الحسنة فما اظن ذلك يحدث في أموال أمة وخزانة دولة باستمرار.

خلاصة ما نريد ان نقول: إن الشك الجارف يحوط كل ما رواه المؤرخون والادباء بخصوص تلك الجوائز والهبات، والذي نعتقده ان تلك الجوائز كانت تسمى، ولا تدفع. وغاية ما في الأمر أنهم كانوا يصالحون الموهوب له بشيء من المال، فيشيع هو ما نطق به الخليفة الأمير من ضخامة الجائزة ليعلو بذلك ذكره، وينبّه اسمه وهو نوع من الاحتيال على الشهرة.

وما زال الشعراء الطوافون المرتزقون من البدو يبالغون في وصف هبات ممدوحيهم ليخدعوا غيرهم عن أنفسهم وينالوا منهم جوائز ذات قيمة. ولقد رأينا احياناً بعض الصحف التي تستجدي الناس تضع بين اسماء المتبرعين اسم متبرع متكتم يجود عادة بأكثر من الذي جاد به الذين ذكرت اسماؤهم جميعاً، لغاية لا تخفى على أحد.

فعسى ان نعود الى رواياتنا التاريخية والأدبية فنحققها على ضوء العقل والمنطق حتى لا تظل تلك الروايات وسيلة للتضليل؛ وعسى أن نفرق بين ما كان يبذل لتأسيس الدولة وما كان يبذل إحساناً أو ما يشبه الاحسان.

روكس بن زائد العزيزي

مكتبة المقال

١ – الأغاني – لأبي الفرج الاصفهاني.
٢ – المستطرف في كل من مستظرف – للأبشيهي.
٣ – التمدن الاسلامي – لزيدان.
٤ – نخب الذخائر – تحقيق الأب الكرملي.
٥ – المعجم الاردني (مخطوط) – للعزيزي.
٦ – الخلاصة التاريخية – للعزيزي.
٧ – فوائد مسجلة – للعزيزي.
٨ – مجلة العرفان – احمد عارف الزين.

مجلة «القلم الجديد»

مجلة شهرية لخدمة الفكر العربي الحديث

صاحبها: عيسى الناعوري

عمان – المملكة الاردنية الهاشمية

يشترك في تحريرها طائفة من كبار ادباء العالم العربي والمهجر

(١) رجل من الكرك اسمه مرار العزيزات، وهو جد المهندس توفيق مرار.